سورة العصر
تدبر وتحليل

✍ د.طه ياسين ناصر الخطيب (★)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:-

فلقد حث الله تعالى عباده على تدبر القرآن الكريم في آيات كثيرة، لما له من فوائد جمة، يصعب حصرها في هذه المقدمة، ومن أهمها:

- وصول العبد إلى درجة اليقين أن هذا القرآن من عند الله تعالى، إذ لو كان من عند غيره لوُجد فيه التناقض والاختلاف بين أحكامه ومعانيه، قال تعالى: [أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا] (النساء:82)، في حين أننا لو تدبرنا القرآن لوجدناه متسقة معانيه، مؤتلفة أحكامه، يؤيد بعضه بعضًا بالتصديق. ([1])
- بتدبر القرآن يصل المتدبر إلى استحالة أن يكون القرآن الكريم كلام بشر [ولعل هذا من الأهداف التي يتوخى هذا البحث الوصول إليها]، مصداقًا لقوله تعالى: (

(★) كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ـ جامعة البحرين.

([1]) انظر جامع البيان للطبري 4 / 182.

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (الإسراء:88)، فتناول الآيات إفرادًا وتركيبًا [النظم]، مما يعمق هذه الحقيقة، ونتيجة لذلك يرسخ الإيمان في القلب.

- "من تدبر كلام الله تعالى عرف الرب عز وجل، وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغب فيما رغبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند سماعه من غيره، كان القرآن له شفاء، فاستغنى بلا مال، وعز بلا عشيرة، وأنس بما يستوحش منه غيره، وكان همه عند تلاوة السورة إذا افتتحها: متى اتعظ بما أتلوه؟ ولم يكن مراده: متى أختم السورة؟ وإنما مراده متى أعقل من الله الخطاب؟ متى أزدجر؟ متى أعتبر؟؛ لأن تلاوته للقرآن عبادة، والعبادة لا تكون بغفلة. ([1]) وبذا " تتحقق العبودية لله تعالى فالقرآن الكريم منهج حياة أنزله الله وفيه التشريع الذي يجب على العباد أن يلتزموا به، فتدبر القرآن هو الوسيلة لمعرفة ما يريد الله منا، وكيفية عبادته سبحانه... ". ([2])
- فيه شفاء لأمراض القلوب، وجماع أمراض القلب: الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، ففيه البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه ... فهو الشفاء من أدواء الشبه والشكوك، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه.

([1]) أخلاق حملة القرآن للآجري / 18 . 19، بتصرف يسير.

([2]) كيف نتدبر القرآن لزمرلي/ 83.

وأما شفاؤه لمرض الشبهات، فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة... فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك بما ينفعه في معاشه ومعاده، ويرغب عمّا يضره .... ([1])

- ومن ثمرات التدبر خشوع القلب [ولعل هذه نتيجة أكيدة لقلب قد شُفي من الأمراض، فأصبح أهلًا للتقوى]، " وخشوع القلب: ذلتُه وسكونه لله؛ ولذلك تسمو الروح، وتبكي العين، وتذل النفس لخالقها وتخضع لربها، ويورث ذلك خشوع الظاهر ... ". ([2])

لهذه الثمار وغيرها اخترت سورة العصر لتكون موضوعًا للتدبر، أما أسباب اختيار هذه السورة، فهي:

- أنها على وجازتها قد اشتملت على ما يتعلق بالناس في الدنيا والآخرة.
- أنها متعلقة بالمكلفين جميعًا لا تستثني أحدًا.
- أنها بينت أسباب الفوز والخسران في الدنيا والآخرة، فصار لزامًا عل العاقل أن يتدبرها، وأن يقف على مدلولات ألفاظها.
- إثبات ثراء الألفاظ القرآنية، فسورة العصر تعد من أقصر سور القرآن، ومع ذلك قد حملت من المعاني، ما سيقف القارئ على بعضه من خلال هذا البحث.

وكان المنهج الذي اتبعته في دراسة هذه السورة هو تناول الألفاظ إفرادًا وتركيبًا، بمعنى أن أتحدث أولًا عن لفظة العصر، من حيث المراد بها، ومن حيث دلالتها، ولمَ أقسم الله تعالى

([1]) المصدر السابق/ 84 . 85، بحذف يسير.

([2]) تدبر القرآن للسنيدي/ 69.

بالعصر دون غيره، ومن أين اشتقت لفظة العصر، وهكذا، ثم أتناولُ الآية مركبة، فقوله تعالى:[إن الإنسان لفي خسر]) جملة اسمية، ولها دلالة ...،

كما أتطرق للألفاظ في سياق السورة كلها كما في (العصر ... الإنسان ...الحق) فأُبين مدلول هذا ونحوه.

وأرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع لبنة في صرح هذا البناء الشامخ، وإن هي إلا سير على آثار من سلف متلمسين خطوهم محاولين استلهام قواعدهم وتطبيقها على دراساتنا، سائلين الله تعالى السداد والقبول.

تمهيـــد

سورة العصر مكية في قول جمهور العلماء، ([1]) وعدادها في ترتيب النزول الثالثة عشرة، نزلت بعد سورة الانشراح، وقبل سورة العاديات،([2]) وهي ثلاث آيات.

مناسبتها لما قبلهـا

" لما كانت لذة هذه الدنيا الظاهرة التنعم بما فيها من المتاع، وكان الإنسان مسؤولاً بما شهد به، ختم التكاثر عن ذلك النعيم متوعدًا برؤية الجحيم، فكان ساكن هذه الدار على غاية الخطر، فكان نعيمه في غاية الكدر، قال دالًا على ذلك بأن أكثر الناس هالك ...".([3])

ما ورد في فضلهـا

([1]) انظر التفسير الكبير للرازي 32 / 84، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي 20 / 178، ولم يذكر الزركشي والسيوطي خلافًا في ذلك، انظر البرهان في علوم القرآن 1 / 282، والإتقان في علوم القرآن 1 / 21 . 22.

([2]) انظر البرهان في علوم القرآن 1 / 280.

([3]) نظم الدرر للبقاعي 8 / 522.

لقد ورد في فضل هذه السورة الكريمة أنه " كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلم أحدهما على الآخر " ([1])

وقال الإمام الشافعي: "لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم "، أورد هذا ابن تيمية، ثم قال: " وهو كما قال، فإن الله تعالى أخبر أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه مؤمنًا صالحًا، ومع غيره موصيًا بالحق موصيًا بالصبر " ([2])

وقال ابن قيم الجوزية:([3]) " هذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره ... "([4])

التفسير التحليلي للسورة:

(والعصر) المراد بالعصر

للعلماء في المراد بالعصر أقوال، منها:

الأول: الدهر، قاله ابن عباس، وزيد بن أسلم ([5])، والفراء ([6])، وابن قتيبة ([1])، وغيرهم.

([1]) ذكره الإمام الطبراني في الأوسط برقم (5124)، وأورده ابن كثير في تفسيره 4 / 710.

([2]) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للسبت / 79، وانظر تفسير القرآن العظيم 4 / 710.

([3]) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، الفقيه الحنبلي الأصولي المفسر النحوي، كان عارفًا بالتفسير لا يجارى فيه، توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة للهجرة.انظر طبقات المفسرين للداوودي، 2 /90 93 .

([4]) بدائع التفسير لابن قيم الجوزية 5 / 327.

([5]) أبو أسامة العدوي، مولى عمر بن الخطاب . رضي الله عنه . كان ثقة فقيهًا عالما مفسرًا، توفي سنة / ست وثلاثين ومائة للهجرة.انظر تقريب التهذيب 1 / 189، طبقات المفسرين للداوودي 1 / 176 . 177.

([6]) يحيي بن زياد الديلمي، إمام العربية أبو زكريا المعروف بالفراء، كان أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي، توفي سنة / سبع ومائتين للهجرة. انظر المصدر السابق 2 / 366 . 367.

الثاني: أنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، قاله الحسن، ([2]) وقتادة ([3]).

الثالث: صلاة العصر، قاله مقاتل. ([4]) ([5]) . والذي عليه أكثر العلماء أن المراد بالعصر هو الدهر.([6]) قال ابن قيم الجوزية: وهو الراجح.([7])

لِمَ لم يأت القسم بالدهر؟

قد يرد سؤال هاهنا: إذا كان المراد بالعصر: الدهر . في قول أكثر المفسرين . فلم لم يأت النظم الكريم بـ: والدهر؟ أجاب الإمام الرازي([8]) عن هذا بقوله: "

ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه ... " ([9]).

([1]) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، كان رأسًا في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة دينًا فاضلاً، توفي سنة ست وسبعين ومائتين للهجرة. انظر المصدر السابق 3 / 357.

([2]) أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن بن يسار، أحد التابعين، كان فصيحًا عالمًا، له التفسير، رواه عنه جماعة.، مات سنة عشر ومائة للهجرة. انظر المصدر السابق 1 / 147.

([3]) قتادة بن دِعامة السدوسي، الحافظ العلامة المفسر، قال عنه الإمام أحمد: " قتادة عالم بالتفسير... " مات سنة ثماني عشرة ومائة، وقيل غير ذلك. انظر المصدر السابق 2 / 44.

([4]) مقاتل بن سليمان الأزدي الخراساني المفسر، حكي عن الشافعي أنه قال: " الناس كلهم عيال على مقاتل بن سليمان في التفسير..."، وهو متروك الحديث. انظر المصدر السابق 2 / 331.

([5]) زاد المسير لابن الجوزي 8 / 316، وانظر البحر المحيط لأبي حيان 8 / 507.

([6]) انظر معاني القرآن للفراء 3 / 289، وجامع البيان 12 / 684، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني(عصر)، ومعالم التنزيل للبغوي 8 / 525، وبدائع التفسير 5 / 328، تفسير المراغي 3 / 134، والتفسير الواضح لمحمد حجازي؟ / 88 ، ومحاسن التأويل، للقاسمي 17 / 6149، وأيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري 5 / 612.

([7]) بدائع التفسير 5 / 328. وسيأتي في الفقرة رقم (6) بإن سبب الترجيح . إن شاء الله تعالى ..

([8]) محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي الشافعي المفسر إمام وقته في العلوم العقلية، وأحد الأئمة في العلوم الشرعية، توفي سنة ست وستمائة للهجرة.انظر طبقات المفسرين 2 / 214 . 215.

([9]) التفسير الكبير 32 / 84.

دلالة العصـر

العصر تستخرج به خلاصات الأشياء، ودلالته هنا أن العصر يخلص روح المعصور ويميز صفاوته، وإنما يكون ذلك بأنواع الابتلاءات، فسمي العصر عصرًا؛ لأنه يستخلص عصارة الإنسان، فيتميز الخبيث من الطيب. ([1])

ما الحكمة في الإتيان بالقسم؟

مما لاشك فيه أن القسم أسلوب من أساليب التوكيد، بل هو أقواها، ولما كان ما سيذكر بعد هذا القسم سيكون موضع شك عند الكثيرين، ناسب أن يؤتى بالقسم ليؤكد جوابه حتى لا يبقي موضعًا للتردد في قبول الخبر.([2])

وهناك أمر آخر، هو التشويق؛ لأن القسم بطبيعته يدفع إلى التطلع لمعرفة المقسم عليه؛ لأنه ـ كما مر ـ لا يلجأ إلى القسم إلا في الأمور المهمة التي تحتاج إلى تأكيد وإثبات. ([3])

لمَ لم يصرح بلفظ القسم؟

ورد النظم الكريم بـ (والعصر) وليس: أُقسم بالعصر؛ لأن القسم كان يكثر في كلام العرب فاختصر، فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة.([4])

لماذا أقسم الله تعالى بالعصر؟

([1]) انظر نظم الدرر 8/ 521، والتفسير البياني 2 / 75، 80.

([2]) انظر دروس من القرآن لمحمد عبده / 68.

([3]) من بلاغة القرآن لأحمد بدوي / 240 بتصرف يسير.

([4]) التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية / 24، بتصرف يسير.

لما كان اختيار المقسم به لابد أن تراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف، ([1]) وقد مر في الفقرة الأولى أن المراد بالعصر – في قول أكثر المفسرين – الدهر، فإن العلماء ذكروا هنا أكثر من وجه للمناسبة بين المقسم به وما بعده، منها:

- أن في الدهر عبرة للمتأمل المتدبر في أحواله، فإن مرور الليل والنهار على تقدير العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة واختلافهما ...، وتغاير الملل والدول وسائر الأحوال الكلية والجزئية، بل الدهر نفسه من أعجب العجائب؛ لأنه موجود يشبه المعدوم، ومتحرك يضاهي الساكن.

- فيه تنبيه على قيمة الزمن، وأن على المسلم أن لا يضيعه فيما لا طائل وراءه، بل يغتنمه فيما يعود عليه بالنفع في دنياه وأخراه.

- إن الوقت هو الحياة، وبما أنه هو الحياة فمعرفة أهميته يعني معرفة قيمة الحياة وأهميتها؛ لأنه من لم يعرف أهمية الوقت عاش ميتًا وإن كان يتنفس على وجه الأرض، وهذا سر قول الكافرين عند سؤالهم، كما بين ذلك الله تعالى: [قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْأَلِ الْعَادِّين] (المؤمنون: 112-113)

نلاحظ من سياق الآية أن إجابتهم توحي بأنهم لم يعيشوا إلا يومًا أو بعض يوم، ولكن في حقيقة الأمر منهم من عاش ستين سنة ومنهم من عاش ثمانين، ومنهم عاش مائة، ولكنهم لم يعرفوا أهمية وقتهم ولم يستغلوه فيما ينفع ويفيد، لذلك لم يبارك الله في حياتهم، ...وذلك لأنهم كانوا معرضين عن الآخرة عالمين بأمر الدنيا .... ([2])

([1]) التفسير البياني لعائشة عبد الرحمن 3/ 25 بتصرف.

([2]) الوقت عمار أو دمار، جاسم بن محمد المطوع / 75، بتصرف.

. إن كثيرًا من الناس يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر، فكأنه سبحانه وتعالى أقسم على أن الدهر نعمة حاصلة لا عيب فيها، إنما هو ظرف للعمل الصالح، فإذا ملئ بالعمل السيئ فالعيب للعامل لا للدهر، فإذا كان هناك ثمة خسران فينبغي أن يضاف للإنسان لا للدهر. ([1])، وفيه تصحيح لما يدور في أذهان كثير من الناس وعلى ألسنتهم على مر العصور من أن سبب ما هم فيه من بلاء إنما هو الزمان.

(إنَّ) حرف توكيد

هذا المؤكد الثاني لبيان هذه الحقيقة المهمة، وهي أن الإنسان في خسر.([2])

(الإنسان) (ال) فيه للجنس

(ال) التي في (الإنسان) للجنس الاستغراقي، بدليل الاستثناء في قوله تعالى: [إلا الذين آمنوا]، والمراد استغراق جنس الإنسان البالغ مبلغ التكليف ... .([3])

وإذن فالمكلفون جميعًا معنيون بهذا الأمر، وهو كونهم خاسرين، ولعل هذا هو السر في عدم الإتيان بـ (كل إنسان) فلو عبر بهذا التعبير لشمل الصبيان والمجانين، ولا تؤدي (ال) مؤدى (كل) إلا بقرينة.([4])

ومما ينبغي الإشارة إليه أن المكلف إذا علم أنه معنيٌّ بهذا الأمر، وأن الخسران لا يستثني أحدًا إلا إذا اتصف بصفات معينة، تشوفت نفسه وتهيأت لتقبّل ما سُيلقى إليها.

([1]) انظر معالم التنزيل 8 /525، وزاد المسير 8 / 316، والتفسير الكبير 32/ 84، وأنوار التنزيل 9 / 560، وبدائع التفسير 5 / 328، وغرائب القرآن للنيسابوري 29 / 172.

([2]) انظر التفسير الكبير 32 / 87،ومعجم حروف المعاني لمحمد حسن الشريف 1 / 404.

([3]) قواعد التدبر الأمثل للميداني/ 608 بتصرف يسير، وانظر جامع البيان 12 / 285، والمحرر الوجيز لابن عطية 5/ 520، والكشاف للزمخشري4 / 800، والبحر المحيط 8/ 508.

([4]) انظر: دروس من القرآن/ 69.

إيثار لفظ (الإنسان)

التعبير بـ (الإنسان) " يتميز بدلالة خاصة على الإنسانية، وتتضح هذه الدلالة باستقراء آيات الإنسان في القرآن وعددها خمس وستون آية في سياق الأهلية لاحتمال التكليف والابتلاء بالخير والشر والتعرض للغواية وما يلابس ذلك من غرور وطغيان.

والإنسان في القرآن الكريم، لا الإنس هو الذي اختص بالعلم، وبالبيان والجدل، كما أنه الذي يتلقى الوصية ويحمل الأمانة.

فشهد ذلك بأن الإنسان ليس مجرد فرد من الإنس أو الناس، وإنما مناط الإنسانية فيه معنوية ترقى به من مجرد الإنسية البشرية، إلى حيث تبعات التكليف والإدراك والرشد وأمانة الإنسان ... وبهذه الدلالة الخاصة يأتي لفظ (الإنسان) في سورة العصر في سياق ما يتحمل من تبعات التكليف ومسؤولية الإنسان الفردية والاجتماعية "([1])

اشتقاق لفظ (الإنسان)

قال الراغب الأصفهاني: ([2]) " الإنسان قيل: سمي بذلك؛ لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل الإنسان مدني بالطبع، من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه.

وقيل: سمي بذلك؛ لأنه يأنس بكل ما يألفه.

وقيل: هو إفعلان، وأصله: إنسيان، سمي بذلك لأنه عهد إليه فنسي ". ([3])

([1]) التفسير البياني 2 / 82 بحذف يسير.

([2]) هو الحسين بن محمد بن الفضل . وقيل غير ذلك . أبو القاسم الراغب، قال عنه الذهبي:" العلامة الماهر والمحقق الباهر، كان من أذكياء العالم " سير أعلام النبلاء 18 / 120، أما وفاته فقد بين الأستاذ صفوان داو ودي أنها سنة 425 هـ. انظر مقدمته للمفردات/ 25.

([3]) مفردات غريب القرآن / 94.

وكل هذه المعاني مناسبة لما في هذه السورة، فالإنسان ينبغي عليه أن يختلط بمجتمعه نافعًا منتفعًا، يوصي غيره ويوصيه الآخرون، ولأنه ينسى فهو بحاجة إلى ذلك أيضًا.

(لفي) اللام للتوكيد

هذا المؤكد الثالث لبيان خطورة ما سيأتي ذكره. ([1])

(فـي) الظرفية

في قوله تعالى: (لفي خسر) ما يفيد أن الخسر قد أحاط بهذا الإنسان من جانب إحاطة الظرف بالمظروف، فكان التعبير بها أبلغ مما لو قيل: إن الإنسان لخاسر. ([2])

(خسـر) معنـاه

قال أبو عبيدة ([3]):" (خسر): مهلكة ونقصان " ([4]).

وقال البغوي ([5]) " والخسران: ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله ". ([6])

تنكير (خسـر)

للعلماء في تنكير خسر قولان:

([1]) انظر التفسير الكبير 32 / 87، ومعجم حروف المعاني 1 / 404.

([2]) انظر التفسير الكبير 32 / 87، والتحرير والتنوير لابن عاشور 30 / 531، وأضواء البيان للشنقيطي 9 / 270، والتفسير البياني 2 / 85.

([3]) معمر بن المثنى البصري، أديب لغوي نحوي، له بصر بالشعر والأخبار والأنساب، ولد سنة 110 هـ، من مصنفاته: مجاز القرآن، توفي سنة: 210 هـ. انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 13 / 252.

([4]) مجاز القرآن لأبي عبيدة 2 / 310.

([5]) الحسين بن مسعود بن محمد أبو محمد البغوي، كان إمامًا في التفسير، وقد بورك في تصانيفه ورزق فيها القبول، توفي سنة ست عشرة ومائة. انظر طبقات المفسرين 1 / 157 . 159.

([6]) معالم التنزيل 8 / 525، وانظر زاد المسير 8 / 316.

الأول: أن التنكير هنا يفيد التهويل، أي في خسر عظيم لا يدرك قدره.([1])

الآخر: التنويع،، أي: نوع من الخسران غير ما يعرفه الإنسان. ([2])

ولعل في عبارة البقاعي ([3]) ما يجلي هذا المعنى إذ يقول:" (لفي خسر) أي: نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم وصرف أعصارهم في أغراضهم ...أعم من أن يكون الخسر قليلاً أو جليلاً بحسب تنوع الناس إلى أكياس وأرجاس، فمن كان كافرًا كان في كفران، ومن كان عاصيًا كان في خسران إن كان بالغًا في المعصية وإلا كان في مطلق الخسر.([4])

ولاشك أن القولين صحيحان، فالإنسان في خسر عظيم لا يدرك مقداره، وفي الوقت نفسه فهذا الخسر متفاوت، فما دام أن الإنسان يستغرق جنس المكلفين فسيدخل الكافر والمسلم العاصي، والمعاصي متفاوتة ...فمن كان كافرًا فهو في خسر تام، ودون ذلك مراتب كثيرة .... ([5])

إطلاق لفظة (خسر)

([1]) انظر التفسير الكبير 32 / 87، وأنوار التنزيل للبيضاوي 9 / 560، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود 6 / 468، وعناية القاضي للخفاجي: 9 / 561.

([2]) انظر بدائع التفسير 5 / 329، و التحرير والتنوير 30 / 531.

([3]) برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن حسن البقاعي الشافعي صنف نظم الدرر، ومصاعد النظر، توفي سنة خمس وثمانين وثمانمائة. انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي 1 / 101 . 102.

([4]) نظم الدرر 8 / 522، بحذف يسير.، وانظر القول الثاني في المصادر السابقة ، والتحرير والتنوير 30 / 532، والتفسير البياني 2 / 86.

([5]) انظر نظم الدرر 8 / 522، وأضواء البيان 9 / 272،

لم تقيد الآية الكريمة هذا الخسر وإنما أطلقته؛ ليعم ضروب الخسر كلها: الخسر في الدنيا، والخسر في الآخرة، والخسر في الأوقات كلها، والخسر في الأماكن كلها، والخسر في المواقف كلها. ([1])

وقد يرد سؤال هنا: إذا سلمنا أن الكافر في خسر يوم القيامة، فما بالنا نرى الكفار ناجحين في حياتهم، بل قد تنعموا في ملذاتها بما لم يصل إلى بعضه كثير من المسلمين الأتقياء؟

والجواب عن هذا أن يقال: إن ما يهدف إليه الإنسان ـ أي إنسان ـ أن يصل إلى السعادة، فما هي السعادة؟ هل هي في وفرة المال، أو في سطوة الجاه، أو في كثرة الولد ...؟

ذكر أحد الذين زاروا السويد ـ التي تعد دولة الرفاهية الأولى في العالم ـ ([2]) أن " الدين عندهم [يعني السويديين] أصبح تراثًا يروى وقصصًا وأساطير، كنائس فخمة ضخمة لا يتردد عليها سوى السواح، حالات الانتحار ـ رغم الرفاهية ـ في أعلى معدلاتها، تتباهى أستاذة الدراسات النفسية في إحدى الجامعات بأن معدلات الانتحار في السويد في المرتبة العاشرة عالميًا، أي أنها ليست الأولى، لقد أعطتهم الرفاهية كل شيء وسلبت منهم الاطمئنان والأمان الروحي، وهذا الكلام ليس من عندي، لاشيء في هذا الكتاب من تأليفي، بل هي مشاهدات ومعلومات بذلت وقتًا طويلاً في جمعها والتأكد من صحتها، أخذتها من أفواه أصحابها، عدد من أساتذة الجامعات والمفكرين التقيت بهم في أماكن متفرقة

([1]) من أسرار التعبير القرآني (تفسير سورة الأحزاب) لمحمد أبي موسى / 406، بتصرف يسير، وانظر البحر المحيط 8 / 508، وأضواء البيان 9 / 270.

([2]) ذكر ذلك الرحالة القطري عبد الرحمن محمود المحمود في كتابه: كتاب إلى سف العالم (رحلات إلى الدنمارك والسويد) / 117.

في السويد شمالاً وجنوبًا سألتهم نفس السؤال: لماذا ـ رغم الرفاهية ـ تكثر عندكم عيادات الطب النفسي، ويشكو الناس من التعاسة وعدم الاطمئنان؟ ... " ([1]).

هذا فيمن حرم نعمة الإيمان بالله تعالى، أما المؤمن فإنه يعيش عيشة راضية كلها خير له كما أخبر بذلك الرسول ﷺ (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن إصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له "، ([2]) وسيأتي مزيد بيان لحال المؤمن عند الحديث عن لفظة آمنوا ـ إن شاء الله تعالى ..

(خسـر) مصـدر

لا يخفى أن لفظة (خسر) مصدر ([3]) خسِر يخسر خسرًا، وقد نص العلماء على أن الإتيان بالمصدر يدل على المبالغة.([4])

بين (خسر) و (خسار) و (خسران)

وردت في القرآن الكريم صيغ أخرى تدل على الخسران غير (خسر)، فلم اختيرت (خسر) من بينها؟

الصيغ الواردة هي: (خسران) و (خسار)، وردت الصيغة الأولى ثلاث مرات، الأولى: في قوله تعالى: [وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ] (الحج:11)، والثانية في قوله تعالى: [... وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا]

([1]) إلى سقف العالم (رحلات إلى الدنمارك والسويد) / 228 . 229.

([2]) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه،53 – كتاب الزهد والرقائق، (13) باب المؤمن أمره كله خير، برقم (2999)

([3]) انظر التحرير والتنوير 30 / 531.

([4]) انظر الكشاف 1 / 288.

(النساء: من الآية 119) والأخرى في قوله تعالى: [قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ] (الزمر: من الآية15).

ووردت صيغة (خسر) مرتين: الأولى في قوله تعالى: [وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا] (الطلاق: 9)، والأخرى في سورة العصر، وهي قوله تعالى: [إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ] (العصر:2)

ووردت صيغة (خسار) ثلاث مرات، الأولى، في قوله تعالى: [وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا] (الإسراء: 82)، والثانية في قوله تعالى: [قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا)] (نوح:21)، والأخرى في قوله تعالى: [وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا] (فاطر: من الآية39).

لو تتبعنا الصيغ الثلاث التي سبق ذكرها لوجدنا ترتيبها تنازليًا كالآتي: (خسران، خسار، خسر)، فـ (خسران) فيها معنى توكيد الخسارة والمبالغة فيها؛ لانتهائها بالألف والنون الدالين على المبالغة، ولذلك وردت في ألوان من السياق تتطلب هذا التوكيد، ففي الآية الأولى نجد الذي يعبد الله تعالى على حرف ... قد خسر الدنيا والآخرة، وهل من خسران أبلغ من أن يخسر المرء دنياه وآخرته كلتيهما، وفي الآية الثانية كان الذي خسر الخسران المبين قد اتخذ الشيطان وليًا من دون الله تعالى، وهل أبلغ في الخسارة من أن يكون الشيطان هو القرين؟ وفي الآية الثالثة جعل نصيب الخسران للذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وخسارة الأهل وحدهم تعد خسارة، كيف إذا اجتمعت معها خسارة النفس؟

أما فيما يتعلق بـ (خسار) فإنها أتت في المواضع الثلاثة التي وردت فيها بمعنى الزيادة في الخسارة أو الكمية المضافة من الخسارة إلى وضع كله خسارة أساسًا، فكلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجًا ... ازدادوا بذلك هلاكًا.

أما (خسر) فهي أدنى الصيغ في معنى الخسارة؛ لأنها جاءت عذابًا دنيويًا لأهل القرية التي عتت عن أمر ربها، وعذاب الدنيا مهما اشتد أهون من عذاب الآخرة ...

ثم وردت في آية أخرى مع الإنسان الفاقد للصفات الأربع الآتية أو لواحدة منها، وهي: غير المؤمن، من لم يعمل صالحًا، لم يقبل على التواصي مع الآخرين بالحق، لم يتواص بالصبر، فإذا اتصف المرء بهذه الصفات كلها أو بأي صفة منها وصف بأنه في خسر.

وقد يسأل سائل: إذا جاز أن يوصف الذي فقد صفة من تلك الصفات الأربع غير صفة الإيمان بأنه في خسر فكيف يجوز أن نصف بهذه الصفة من فقد صفة الإيمان، أو الذي فقد الصفات الأربع جميعًا؟ لماذا لا يوصف بأنه في خسران؟

الجواب: إن هذه الصفات الأربع متداخلة؛ لأنها جمعت في حكم واحد، ولهذا أطلق عليها هذا الوصف الذي يناسب أوسط هذه الصفات السلبية بعدًا عن الحق، ولأنها متداخلة جمعت في مكان واحد وحكم واحد، فقد اكتفي بهذه الصفة حتى لأقصاها بعدًا عن الحق، إذ لا يعقل أن يوصف المؤمن الذي فقد شرط العمل أنه في خسران التي تعني توكيد الخسارة ... ([1]) والله تعالى أعلم.

(والعصر إن الإنسان) بين العصر والإنسان.

إن القسم بالعصر على أن الإنسان في خسر إشارة إلى أن الإنسان هو الإنسان مهما اختلفت عليه الأزمنة، في خصائصه النفسية التي تدفعه إلى أن يعبر عنها بأنواع من السلوك تؤدي به إلى الخسر في أكثر أحواله، منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة. ([2])

(إن الإنسان لفي خسر) جملة إسمية

([1]) انظر سر الإعجاز للدكتور عودة الله القيسي / 248 . 254.

([2]) معارج التفكر ودقائق التدبر للميداني 30 / 611 .

لقد جيء لتقرير هذا الأمر العظيم بالجملة الاسمية لإفادة ثبوته وتحققه.

(والعصر إن الإنسان لفي خسر) اجتماع المؤكدات

إن مجيء هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد في جوابه وكذا اللام، وجعل الخسر ظرفًا لهذا الإنسان، ثم التعبير عن هذا كله بالجملة الاسمية يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس، ([1]) ولأمر آخر، هو غرابة هذا الخبر وبعده عن تصورات الناس فكثير منهم حالة كثير منهم حالة من هو شاك فيها أو منكر لها.([2])

لم لمْ يكن التعبير بـ: إن الإنسان لفي ربح إلا الذين كفروا؟

قد يرد هذا السؤال، وجوابه ـ والله تعالى أعلم ـ أن النفوس مجبولة على دفع المضار عنها، وقد قرر الفقهاء قاعدة أن دفع المفسدة مقدم على جلب المنفعة، وكل إنسان يكره الخسارة، أما الربح فقد يوجد من يزهد فيه إيثارًا للراحة أو بعدًا عن المخاطرة.ولذا لما جوبه الإنسان ابتداء بأنه في خسر تشوفت نفسه لمعرفة الأمور التي تنتشله من هذا الخسر المحيط به من كل جانب، وحري بالمتدبر أن يستحضر وقت نزول هذه السورة، فقد نزلت قبل الهجرة، إذن فأكثر المعنيين بلفظة إنسان كانوا مشركين ...، وأمر آخر هو أن في نظم القرآن ما يدل على كثرة الخاسرين، وأن الناجين قلة، ولو كان التعبير بما ورد في السؤال لدل على العكس ـ والله تعالى أعلم ..

(والعصر إن الإنسان لفي خسر) مكانة الإنسان في القرآن الكريم

([1]) انظر التحرير والتنوير 30 /531 .

([2]) معارج التفكر 30 / 607.

حين ينظر المتأمل في نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة يجد اهتمامًا مطلقاً بالإنسان والحديث عنه، فهو العبد المكرم الذي تخدمه قوانين الكون وجماداته ونباته وحيوانه. ونجد في هذا فيضًا من النصوص ذات الدلالة المباشرة والإيحائية، من نحو قوله تعالى: [وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً] (الإسراء:70)، وقال ـ Y اسمه ـ: [وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ] (الجاثية:13).

ومن هنا نجد أن اهتمام الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كان دائمًا ينصب بصورة أساسية على صقل الإنسان وتهذيبه وتقويم اعوجاجه. وحين يلتفتون إلى الجوانب المادية والعمرانية فليس ذلك إلا من باب تهيئة العوامل والظروف التي تمكن الإنسان من القيام بحق الاستخلاف ... وحين ننظر في توجهات النبي صلى الله عليه وسلم واهتماماته في إشادة صرح المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية نجد أن خطابه كان يركز على بناء الإنسان عقديًا ونفسيًا وفكريًا وسلوكيًا ... ([1])

وفي سورة العصر يبدو هذا الأمر واضحًا، إذ أن محور اهتمام السورة هو الإنسان، وهو هدفها الأول والأخير، وفي هذا من التكريم ما فيه.

(والعصر إن الإنسان لفي خسر) الذكر والأنثى

يحلو للكثيرين أن يتحدثوا ـ دون ملل ـ عن ما وصل إليه الغرب فيما يتعلق بإعطاء المرأة حقوقها ـ وليس هنا موضع الرد عليهم ـ ولكن المراد بيان أن العناية الربانية قد توجهت للإنسان، وهذه اللفظة تشمل الذكر والأنثى، وإذن فكلاهما معني بهذا الأمر على حد سواء،

([1]) من أجل انطلاقة حضارية شاملة، لعبد الكريم بكار / 90، بحذف يسير.

وأسباب النجاة للجنسين واحدة، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يجلي هذه الحقيقة، قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(النحل:97)، وقال عز من قائل: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ...) (آل عمران: من الآية195).

(والعصر إن الإنسان لفي خسر) عالمية الإسلام

إن القرآن الكريم لم يوجه هذه الحقيقة للعرب وحدهم،بل عنى بها الناس جميعًا، فلم تكن دعوته قومية فيعنيه أمر العرب أو غيرهم، وإنما كان هدى ورحمة للعالمين، وهكذا كانت بعثة المصطفى ﷺ كما وصفها الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء: 107)، وينبغي أن يُستحضر زمنُ نزول هذه السورة، فقد نزلت قبل الهجرة بل هي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم،وهذا يعني أن الإسلام أعلن عن عالميته وهو في مكة المكرمة، عندما كان محاربًا ....

(والعصر إن الإنسان لفي خسر) المساواة ونبذ لتعصب

إن الآية الكريمة تقرر أن كل إنسان بإمكانه أن يخرج من دائرة الخسر إلى دائرة الفوز العظيم، ولا يتطلب ذلك ـ بعد توفيق الله تعالى ـ إلا الصفات التي ذكرتها السورة الكريمة، بمعنى أنه لا يشترط أن يكون الفائز من جنس معين أو لون معين ... كما لا يشترط فيه أن يكون حرًا بل قد وردت آيات كريمة تنص على أن العبد المؤمن خير من الحر المشرك، قال تعالى : (وَلا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) البقرة:221)،

وكلما ازداد إيمان هذا الإنسان كرم عند الله تعالى، قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] (الحجرات:13)، وإنما ذُكر أن بمقدور كل إنسان أن يتصف بهذه الصفات؛ لأن كثيرًا مما يفتخر به الناس لا يكون بمقدور الجميع الاتصاف به، فمن كان حسبه وضيعًا ـ مثلاً ـ كيف له أن يصبح ذا حسب شريف.

(والعصر إن الإنسان لفي خسر) إثبات المعاد

تبين من إطلاق لفظة (خسر) على أنه خسر دنيوي وأخروي، ففيه دلالة على أن هنالك يومًا للحساب يتفاوت فيه حال الناس، فمنهم الخاسر ومنهم الرابح، هذا أمر، وثمة أمر آخر هو أن الخسر ترتب على عدم الإيمان وانتفاء العمل الصالح، وعدم التواصي بالحق، وعدم التواصي بالصبر ... فما حال من اتصف بأضدادها، وماذا يرجو من إيمانه وعمله الصالح ...بل إن الإيمان لا يقبل ما لم يتخلله إيمان باليوم الآخر.

(إن الإنسان لفي خسر) شبهة ورد

" استدل بعض المعتزلة بما في هذه السورة على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار؛ لأنه لم يُستثن فيها عن الخسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...

وأجيب عنه بأنه لا دلالة في ذلك على أكثر من كون غير المستثنى في خسر، وأما كونه مخلدًا في النار فلا، كيف والخسر عام، فهو إما بالخلود إن مات كافرًا، وإما بالدخول بالنار إن مات عاصيًا ولم يغفر له، وإما بفوت الدرجات العاليات إن غفر له ...".([1])

(إن الإنسان لفي خسر) حتمية الخسر

([1]) روح المعاني، للآلوسي 15 / 459.بحذف يسير.

يعتقد المسيحيون بأن خطيئة عامة لزمت جميع أفراد البشر منذ أكل آدم عليه السلام من الشجرة التي نهاه الله تعالى عنها، ويعللون ذلك بأن الإنسان الأول مسؤول عن كل الذين تحدروا منه مسؤولية رب الأسرة عن أفراد عائلته، فالناس جميعًا يتحملون خطيئة تسلسلت إليهم عن طريق أبيهم آدم.

ويقولون: عصى آدم فحصلت القطيعة بينه وبين ربه، وبات يحن إلى نعيم فقده، ولا سبيل إلى العودة إليه، وهو لا يملك وسيلة للتكفير، ولكن الله شاء أن يتدارك الإنسان فأرسل ابنه الوحيد [يعنون به عيسى عليه السلام، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا] إلى نجدته الذي تجسد وتألم ومات ليفتدي البشر من عبودية الخطيئة ويزيل عنهم لطخة تسلسلت إليهم عن أبيهم الأول ...

وهم يذكرون هذا ويستشهدون عليه بقوله تعالى: (والعصر إن الإنسان لفي خسر) ([1])، ولا يلتفتون إلى الآيات القرآنية التي تبين أن الإنسان مسؤول عما اقترفت يداه فقط، قال تعالى: [وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى] (الإسراء: من الآية15)، وقوله تعالى: [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ] (المدثر:38). أما فيما يتعلق بخطيئة آدم ـ عليه السلام ـ فقد كانت محصورة فيه وحده ولم تنتقل إلى ذريته، ثم إنه تاب، وقبل الله تعالى توبته، قال تعالى: [فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ] (البقرة:37).

بل إن المتدبر لهذه الآية الكريمة يلحظ دقة القرآن الكريم فقد قال تعالى: [والعصر إن الإنسان لفي خسر]، ولم يقل: إن الإنسان خاسر، وهذا يعني أن الخسر يحيط به من

([1]) الخطايا، لعفيف طبارة / 32 بتصرف يسير ، وانظر تفسير سور المفصل، لكنون / 404 ـ 405، والنصرانية والإسلام، لطهطاوي / 48 ـ 50 ، وانظر المواقع الآتية: www.geocities، وموقع www.alkalema.net.

كل جانب، أي: أن الخسر شيء خارج عنه، والحديث الشريف يبين هذا بوضوح، يقول الرسول ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ...)."[1]

(والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين ...) تشخيص وعلاج

إن كثيرًا من المنظِّرين يكتفون في بعض الأحيان بتشخيص الداء، فقد نسمع من بعضهم أن الأمة في حالة ضعف وهوان و ...، ولكننا لا نسمع منهم كيفية الخروج من هذه المحنة، وما هو الدواء الذي يشفي الأمة من مرضها ويُنهضها من كبوتها، والمنهج القرآني حين بين حال الناس، أردفه ببيان الأمور التي تُصلح أحوالهم أفرادًا كانوا أو جماعات.، ففي قوله تعالى: إن الإنسان لفي خسر) بيان لحال الناس، وفي قوله عز من قائل: [إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر] بيان للسبيل الذي يخرجهم من دائرة الخسر.

(إلا الذين آمنوا ...) الاستثنـاء

إن السورة الكريمة قد حكمت على الناس كلهم بالخسر، ثم استثنت من هذا الحكم من اتصف بصفات أربع ...فدل ذلك على أنهم قليل جدًا ...([2]). وهذا ما يدل عليه حديث الرسول ﷺ، فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم) على النبي ـ ﷺ ـ وهو في مسير له، فرفع بها صوته حتى ثاب إليه أصحابه، ثم قال: أتدرون أي يوم هذا؟ يوم يقول الله جل وعلا لآدم: قم فابعث بعث النار

([1]) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، 23 . كتاب الجنائز، 79 . باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يُصلي عليه...، برقم (1358). والإمام مسلم في صحيحه، 46 . كتاب القدر، 6 . باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة...، برقم (2658).

([2]) انظر نظم الدرر 8 / 523.

من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين. فكبر ذلك على المسلمين، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " سددوا وقاربوا وأبشروا، فو الذي نفسي بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو كالرقمة في ذراع الدابة، وإن معكم لخليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من كفرة الجن والإنس ".([1])

(الذين) الاسم الموصول للتأكيد على مضمون الصلة

قال الله تعالى: [إلا الذين آمنوا] ولم يقل: إلا المؤمنين؛ لما عُلم من أن الإتيان بالاسم الموصول للتأكيد على مضمون الصلة، وهو هاهنا: الإيمان والعمل الصالح ...، إذن ففيه تأكيد على أهمية الإتيان بهذه الأمور المهمة.

(الذين) الاسم الموصول للعليّة.([2])

إن في الإتيان بالاسم الموصول دلالة على أن سبب انتفاء الخسر هو الإيمان والعمل الصالح ...، ففي ذكر السبب دعوة لتحصيل هذه الأسباب التي تنجينا من الخسر الذي يحيط بنا من كل جانب.

(الذين) الاسم الموصول من ألفاظ العموم

المراد بـ (الذين آمنوا) كل من اتصف بما في حيز الصلة لا كما توهم بعض الناس من أنها محصورة في أُناس معينين، ([3])، ويدخل في هذا العموم كل من آمن سواء كان كامل الإيمان، أو من هم دون ذلك. ([1])

([1]) أخرجه ابن حبان، انظر الإحسان 16 رقم الحديث (7354)، وقال محققه: " إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه الحاكم في المستدرك 4 / 566 وقال:" هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ".وعزاه الهيثمي لأبي يعلى، وقال:" ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن مهدي، وهو ثقة". مجمع الزوائد 10/ 394.

([2]) انظر التحرير والتنوير 21 / 310.

([3]) انظر روح المعاني 15 / 458.

(آمنوا) الإيمـان

هو التصديق الذي معه أمن.([2]) وهنا ملحظ دقيق يبعد عنا ظل الترادف، فالإيمان ليس مجرد التصديق كما يظنه بعض العلماء، بل هو تصديق يصاحبه أمن، وثمة فرق آخر بين الإيمان والتصديق، وهو أن الإيمان لا يكون إلا في الأمور الغيبية.([3])

الإيمـان: في الاصطلاح

ورد في حديث جبريل ـ عليه السلام ـ أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ...). ([4])

والإيمان يقتضي اعتقادًا بالقلب وقولاً باللسان وعملاً بالجوارح، هذا قول السلف، قال أبو عبيد القاسم بن سلام ([5]): " فالأمر الذي عليه السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا ... أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعًا." ([6])

وقال ابن حجر: " ...فالسلف قالوا: هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان. وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله ...وهذا بالنظر إلى ما عند الله تعالى أما

([1]) انظر نظم الدرر 2 / 539.

([2]) مفردات في غريب القرآن / 91.

([3]) انظر الإيمان الأوسط، لابن تيمية 71 ـ 72، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي 2 / 472.

([4]) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، 1 ـ كتاب الإيمان، 1 ـ باب بيان الإيمان والإيمان والإسلام...، برقم(1).

([5])القاسم بن سلام بتشديد اللام، أبو عبيد التركي البغدادي، الفقيه، الأديب المشهور، صاحب التصانيف المشهورة، من القراءات والفقه، واللغة، والشعر، مات بمكة سنة اثنتين، وقيل: ثلاث، وقيل: أربع وعشرين ومائتين للهجرة. انظر طبقات المفسرين 2 / 32 ـ 37.

([6]) الإيمان للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام / 66.

بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط فمن أقر أُجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر إلا إذا اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم ..." ([1])

(آمنوا) فِعل

وردت صلة الموصول في الآية الكريمة فعلاً مفيدًا للحدوث، وليست اسمًا، فلم يقل عز من قائل: إلا المؤمنين، وذلك لحث الإنسان الذي قد أُحيط به الخسر على إحداث الإيمان. ([2]).

(آمنوا) فعل ماض

التعبير بالفعل الماضي يدل على أن الأمر قد تحقق فعلاً، أي: أن إيمانهم قد تحقق فعلاً، وفي هذا إشارة واضحة إلى وجوب المبادرة إلى إحداث الإيمان، وعدم التسويف في هذه القضية الخطيرة، فالناجي من آمن لا من سيؤمن.

(آمنوا) بمن؟

لا يخفى على المتدبر أن ههنا حذفًا، وهو متعلق (آمنوا)، يعني: آمنوا بمن؟ ولتوضيح ذلك لا بد من ذكر آية نصت على هذا المحذوف، قال تعالى: [آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)] (البقرة:285)، والمحذوف هنا قد يقال: إنه يعلم من السياق، وقد يقال: إنه لا ينصرف الذهن عندما يطلق الإيمان إلا لمن يستحقه وهو

([1]) فتح الباري، لابن حجر 1 / 68، بحذف يسير. وانظر محاضرات إسلامية هادفة للأشقر / 192.

([2]) انظر إرشاد العقل السليم 1 / 93.

الله تعالى فإنه هو المعبود بحق، يقول ابن عاشور ([1]): " ولم يذكر متعلِّق لـ (آمنوا) لأن الإيمان صار كاللقب للإيمان الخاص الذي جاء به دين الإسلام، وهو الإيمان بالله وحده " ([2]).

(آمنـوا) إسناد الفعل للإنسان

أسند الله تعالى فعل الإيمان إلى المؤمنين، وبين أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح يمدحون، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم يستحقون الذم والعقاب، وفي هذا رد على الجبرية الذين يزعمون " أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز ..." ([3]) إذ لو كان الأمر كما يزعمون لما كانوا يستحقون على أعمالهم الصالحة ثوابًا، ولا على تركها عقابًا.

(آمنـوا) تحرير الإنسان من العبودية لغير الله تعالى

الإسلام بدعوته إلى الإيمان بالله تعالى وحده حرر الإنسان من العبودية لغير الله بشرًا كان أو جحرًا، أو أوهامًا، أسقط الآلهة المزيفين الذين قدسهم الناس واتخذوهم أربابًا من دون الله أو مع الله، سواءً كانوا من رجال الدين أو من رجال الدنيا والسلطان، كما قال تعالى: في شأن أهل الكتاب: [اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ](التوبة:31). ([4])

([1]) الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، من بيت عريق في العلم والنسب في تونس، تولى مشيخة الإسلام فيها، له المؤلفات العديدة النافعة، من أهمها تفسيره: التحرير والتنوير ، انظر مناهج المفسرين للدكتور منيع عبد الحليم محمود / 333، وما بعدها.

([2]) التحرير والتنوير 8 / 120.

([3]) شرح العقيدة الطحاوية 2 / 639.

([4]) كيف نتعامل مع القرآن الكريم للقرضاوي / 117، بتصرف يسير.

إن الإسلام بدعوته هذه ينشئ في نفس الإنسان عزة وكرامة، وذلك أن الإنسان قد يذل لغيره خوفًا على حياته أو رزقه، فإذا آمن بالله تعالى، وأيقن أن الحياة والموت والرزق بيد الله تعالى فستتحرر نفسه من ذل العبودية لغير الله، و القرآن الكريم يؤكد هذه المعاني ليرسخها في قلوب المؤمنين قال تعالى: [وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلا ...] (آل عمران: من الآية 145)، هذا فيما يتعلق بالأجل، أما الرزق فيقول الله تعالى: [وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ] (العنكبوت: 60). ([1])

(وعملوا الصالحات) العطف.

عطفت الآية الكريمة العمل الصالح على الإيمان بحرف الواو الذي يقتضي المغايرة، وعلى هذا هل العمل الصالح ـ ويعنى به هنا: العمل الظاهر ـ خارج عن مسمّى الإيمان، أم ماذا؟

للعلماء أقوال في الذي يقع عليه اسم الإيمان:

الأول: قول مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه، وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة، وأهل الظاهر، وجماعة من المتكلمين أنه: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

الثاني: قول الحنفية، أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان.([2]).

فمن ذهب إلى القول الأول رأى أن عطف العمل الصالح على الإيمان من باب عطف الخاص على العام، وقد ورد مثل هذا بكثرة في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: [وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا

([1]) معالم الثقافة الإسلامية لعبد الكريم عثمان / 38 ـ 39، بتصرف يسير.

([2]) انظر شرح العقيدة الطحاوية 2 / 286، بتصرف يسير.

مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا](الأحزاب:7)، فقد خص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم؛ تنويهًا بأن لهم مزيد شرف وفضل؛ لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة ومن أُولي العزم. ([1])

وأصحاب القول الثاني جعلوا التغاير على أصله، إذ إن العطف ـ كما هو معروف ـ يقتضي المغايرة، نقول: جاء زيد وعمرو، فعمرو غير زيد. وإذن العمل الصالح غير الإيمان.

وفيما يتعلق بالآية التي نتدبرها يوضح ابن تيمية هذا الأمر فيقول: " إن الإيمان إذا قرن بالعمل، كما في قوله تعالى: [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات] (البقرة 277) فقد يقال: اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازمًا له، وقد يقال: بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام، وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له.([2])

(عملوا) ولم يقل: فعلوا

يقول الراغب الأصفهاني: " العمل: كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلما ينسب إلى ذلك ..." ([3])، ولا تخفى أهمية هذا الفرق الدقيق في ضوء ما ترمي إليه الآية الكريمة، فلا بد للذي يعمل الصالحات أن يكون ذا قصد، ولو فعل إنسان صالحًا ولم يقصد به وجه الله تعالى فإنه لا يستحق الثواب عليه.

وثمة فرق آخر، هو أن (العمل) يستعمل لما يمتد زمانه، أما الفعل فإنه لما يكون دفعة واحدة،([4]) ولذا فإن في قوله تعالى: [وعملوا الصالحات] دعوة لأن يكون فعل المسلم

([1]) انظر فتح القدير للشوكاني 4 / 286.

([2]) الإيمان الأوسط / 97، بتصرف يسير.

([3]) مفردات غريب القرآن/ 587.

([4]) الإتقان في علوم القرآن 1 /214.

ديمة، أي: مستمرًا، وفي هذا تنبيه لمن ينهجون خلاف هذا الهدي الكريم، فيجعلون أعمالهم موسمية، فهم يصلون في شهر رمضان، وفي أيام الجمع فقط، والسورة الكريمة جعلت معيار النجاة من الخسر أن يكون عمل المسلم مستمرًا.

وفي هذا المعنى يقول أبو هلال العسكري ([1]): " وأصل العمل في اللغة: الدءوب، ومنه سميت الراحلة يعملة ..." ([2]) و " الدأب: إدامة السير ". ([3])

وهناك فرق آخر: أن العمل أعم من الفعل، إذ إن العمل يشمل الفعل والقول، ولذا يقول البقاعي عند تفسير قوله تعالى: [وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار] (البقرة: من الآية25) "...من الأقوال والأفعال "([4])

(عملـوا) فعل مـاض

الفعل الماضي ـ كما مر ـ يدل على التحقق؛ لأن ما مضى قد وقع وتحقق، فالذي سينجو من الخسر من قد عمل الصالحات لا من في نيته أن يعملها، فقد يأتيه الموت بغتة فيحال بينه وبين العمل.وفي هذا دعوة لأولئك الذين يسوفون العمل، مغترين بشبابهم أو بصحتهم .

(عملـوا) أسند العمل إليهم

مر في الفقرة رقم (39) أن الآية الكريمة أسندت الإيمان إلى المؤمنين، وذُكر هناك أن في هذا رد على الجبرية ...، ويقال هنا ما قيل هناك: إن القرآن الكريم أسند العمل

([1]) الحسن بن عبد الله بن سهل اللغوي الأديب، كان موصوفًا بالفقه والعلم، قال ياقوت: " ولم يبلغني شيء عن وفاته... " انظر طبقات المفسرين 1 / 135.

([2]) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري / 110.

([3]) مفردات غريب القرآن/ 321.

([4]) نظم الدرر 1 / 71، وينظر الإيمان لأبي عبيد / 77.

للمؤمنين، وأن عملهم سينجيهم ـ بعد فضل الله تعالى ـ من الخسر، فهو إذن عمل ممدوح، ولا يكون العمل ممدوحًا إلا إذا كان للمرء فيه اختيار.

(الصالحات): ال

قال ابن عاشور: " والتعريف في قوله: (الصالحات) تعريف الجنس مراد به الاستغراق، أي: عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أُمروا بعملها بأمر الدين..." ([1]).

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن (ال) هنا ليست استغراقية بدلالة نصوص أخرى كثيرة تدل على أن الذي يعمل بعض الصالحات مع صدق إيمانه وصحته لا يكون الخسر محيطًا به من كل جوانبه. ([2])

ولا تعارض بين القولين، فإن القول الأولُ يحمل على مطلق الخسر، ويحمل القول الثاني على الخسر المطلق.

ويحسن هنا بيان إن الإنسان لا ينفك عن خسر، فإن كان كافرًا ... أو مسلماً عاصيًا فخسرهما واضح، وإن كان مشغولاً بالمباحات فالخسر حاصل أيضًا، وذلك لأنه لم يشغل وقته فيما ينفعه ويرفع درجته في الجنة ...، بقي من كان مشغولاً بالطاعات، فيقال: ما من طاعة إلا ويمكن للإنسان أن يأتي بها على وجه أحسن من الوجه الذي عملها به؛ لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر، فكان تعظيمه من الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وترك الأعلى والاقتصار على الأدنى نوع خسران .... ([3])

([1]) التحرير والتنوير 30 / 532.

([2]) معارج التفكر 30 / 612.

([3]) انظر التفسير الكبير 32 / 87.

ولذلك بين ابن عاشور بعد ذلك " أن انتفاء الخسران عنهم يتقدر بمقدار ما عملوه من الصالحات، وفي ذلك مراتب كثيرة ". ([1])

(الصالحات) سبب وصفها بالصلاح

" وصفت أعمال الخير بالصالحات؛ لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه وحياته الدنيوية والأُخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته "

وإذا صلح الفرد صلح المجتمع، وإذن فالعمل الصالح يساهم في إعداد الفرد الصالح والمجتمع الصالح.

(وعملوا الصالحات) لفظ عام يحتمل التخصيص

لما كان قوله تعالى: (وعملوا الصالحات) لفظًا عامًا يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى: (لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (الأنعام: من الآية152)، أي بمقدار ما تسعه طاقتها ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها ... " ([2])

(وعملوا الصالحات) مفهوم العمل الصالح

المراد بـ (وعملوا الصالحات) امتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي، ومما يجدر ذكره هنا أن تفسير العمل الصالح بأنه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ... . على ما لهذا الأمر من أهمية . تفسير قاصر، ذلكم أن الله تعالى أمر . إضافة لما تقدم من صلاة وصيام وزكاة ... . بالعمل والكد في الأرض وإعداد العدة للدفع عن العدل والخير، ومطاردة الظلم والزيف والرشوة، وكل

([1]) التحرير والتنوير 30 / 532.

([2]) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي / 251.

صور الضلالات في المجتمع المسلم، ويجب أن يفهم المسلمون معاني الإسلام على وجهها الصحيح ليتقرر في قلوبهم أن التدين اهتمام بحياة الناس كما أمر الله تعالى، وصياغة الدنيا على منهج الوحي، والإسلام لا يزهد في الدنيا ولا يحقرها؛ لأنها أصل في تكييف الحياة الآخرة، فمن عمّر في الدني، وبنى وزرع الخير في أرض المسلمين، وتربة هذا الدين، حصد خيرًا في الآخرة، العمل الصالح: ملء الأرض بالخير المشرق الطاهر، تعمير الأرض بقلوب تسبح، وأياد طاهرة ندية بماء الوضوء، إن قصر العمل الصالح على الصلاة والصوم يهادن الكسل والتواكل، كما يهادن الضلال والزيف والباطل، ويميل إلى أنواع من العبادة الهادئة التي لا تكلف صاحبها أكثر من غسل الوجه واليدين ...، وترفع عنه مشقة الدعوة إلى الخير، والإلقاء بالنفس والبدن في مشكلات الإنسان وحياة الناس، ([1]) إن العمل الصالح يشمل وجوه الخير كلها، إنه الإحسان إلى المحتاجين،والتعاون على مساعدة الضعفاء ومواساتهم حتى يكون المجتمع قويًا بتكافله، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتزام الحق والعدل والإنصاف، ويشمل كذلك الكسب الحلال، والقيام بالواجب نحو الأسرة والأقارب والجيران، ويندرج تحت هذا المفهوم التخطيط لمقاومة الفقر والعراء والجهل، وهو أيضًا ـ السعي الجاد إلى توفير أسباب المنعة والعزة، والأمن داخليًا وخارجيًا ... وفوق ذلك إنه اتصال الإنسان بالكون، ومواجهته بالنظر، قصد معرفة ما وراءه من أسرار والكشف عما فيه من خيرات، وتسخيرها للصالح العام ....([2])

لا يفهم مما تقدم النزول بالصلاة والزكاة عن محلها الأسنى، فهي أركان الدين وقواعده التي بُني عليها، وإنما المقصود محاربة هذا الفهم الضيق لطاعة الله والعمل الصالح، الذي أذاعه في

([1]) من أسرار التعبير القرآني / 272 . 274، بتصرف يسير.

([2]) انظر المجتمع الإنساني في القرآن الكريم، لمحمد التومي/ 39 . 40.بتصرف

المجتمعات نظر أعشى، نظر إلى وظيفة الإسلام في ضوء التأثر بوظيفة النصرانية، وهذا قياس خاطئ ترفضه أصول الإسلام، ولذا وجد بعض المفكرين الذين يدعون إلى حصر الإسلام في دائرة الفرد والأسرة، وتخلية الساحة الاجتماعية والسياسية ..للعلمانيين وغيرهم ([1])

(وعملوا الصالحات) متى يكون العمل صالحًا؟

لكي يتصف العمل بالصلاح لا بد له من ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون صاحبه مؤمنًا، قال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (النحل: 97)، فقيّد الجزاء بالإيمان، ومفهوم المخالفة يقتضي أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه عمله، وفي هذا يقول الله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَاب) (النور:39).

الثاني: موافقته لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله تعالى يقول: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الحشر: من الآية7).

الثالث: أن يكون خالصًا لله تعالى؛ قال الله تعالى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء ...) (البينة:من الآية5).

(وعملوا الصالحات) تقتضي العلم

تقرر عند العلماء أن العلم قبل القول والعمل ([2]) إذ لا يكون العمل صالحًا ما لم يكن وفق ما أمر الله تعالى به، إذن يلزم من هذا أن يتعلم المسلم ما به يكون العمل صالحًا.

(وعملوا الصالحات) الحاجة إلى الرسل

([1]) من أسرار التعبير القرآني / 272 . 274، بتصرف يسير.

([2]) ترجم الإمام البخاري أحد أبوابه بقوله: " باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: (فاعلم أنه لاإله إلا الله) فبدأ بالعلم " الباب العشر من كتاب العلم، في صحيح البخاري.

لا طريق لمعرفة أوامر الله تعالى ونواهيه إلا عن طريق الرسل ـ عليهم السلام ـ، الذين أرسلهم الله تعالى ليبلغوا شرعه لعباده، يقول البقاعي: " ... وفي هذا إشارة إلى العلم بالاحتياج إلى إرسال الرسل لبيان المرضي لله من الاعتقادات والعبادات إيمانًا وإسلامًا وإدامة لذلك ليكون فاعله من قبضة اليمين وتاركه من أصحاب الشمال ". ([1])

(وعملوا الصالحات) إيمان بالكتب

لم يترك الله تعالى عباده دون أن يبين لهم السبيل الموصلة إليه، فأنزل على رسله الكتب التي ترشد الناس إلى ما فيه صلاحهم، وإلى ما فيهم سعادتهم وفوزهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى:(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ.يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم) المائدة:15 ـ 16).

(وعملوا الصالحات) إيمان بالملائكة

اختص الله تعالى جبريل ـ عليه السلام ـ بالسفارة بينه وبين رسله ـ عليهم السلام ـ، وكان هو الذي نزل بالقرآن الكريم على قلب النبي ـ ﷺ ـ قال تعالى: (نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربي مبين) (الشعراء: 193 ـ 195).

إذن لا يتم الإيمان بالكتب دون الإيمان بالملائكة.

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات) تقديم الإيمان على العمل الصالح

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره، وإلا فهو مقطوع من شجرته، صائر إلى ذبول وجفاف، وإلا فهي ثمرة شيطانية، وليس لها امتداد أو دوام ...

([1]) نظم الدرر 8 / 522.

ومن ثم يبطل القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل، وقد وردت نصوص صريحة تدل على هذا، يقول عز من قائل: (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) (إبراهيم:18). ويقول تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (النور:39). وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله ما لم يستند إلى الإيمان.

إن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح .. هذا هو الإيمان الإسلامي لا يمكن أن يظل خامدًا لا يتحرك، كامنًا لا يتبدّى في صورة حية خارج ذات المؤمن ...([1])

إذن فقد قدم الأصل وأُخر الفرع، فلا بد لكي يؤتي العمل ثمرته من تصحيح الاعتقاد، وهذا ما ينبغي أن يدرك أهميته المصلحون فيبدءوا بما بدأ به الله عز وجل.

(وتواصوا ...) معنى الوصية؟

قال الراغب الأصفهاني: " الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظ "([2])

(وتواصوا) لم ورد التعبير بالوصية؟

"الأصل اللغوي للمادة يعطي معنى قوة الارتباط والاتصال، فالوصاة، والوصية: جريدة النخل يُحزم بها. ووصت الأرض: اتصل نباتها، ومنه جاءت الوصية فيما يُعهد به الموصِي ليصل إلى من ينبغي أن يتلقاه: أوصاه ووصاه، عهد إليه ...، وغلب مجيء الوصية بمعناها

([1]) في ظلال القران 6 / 654 . 656. بتصرف يسير.

([2]) مفردات غريب القرآن / 873.

المعروف فيما يوصي به الراحلون عن الدنيا، مع حرمة دينية يسبغها القرآن على الوصية بالحق في حدود ما أمر به الله ".([1])

ويقول البقاعي: " واختير التعبير بالوصية إشارة إلى الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعمال اللين بغاية الجهد ". ([2])

فلفظة (تواصوا) فيها بيان أن الحق الذي ينبغي أن نتواصى به لا بد أن يحاط بالرفق واللين وأن يؤدِي إلى إقامة جسور المودة والإخاء لتتولد منه قوة الارتباط بين المؤمنين، وبخلاف ذلك فإن نصحنا لن يؤدي هدفه.

(تواصـوا) صيغتـها

صيغة تواصى تدل على المشاركة، والمعنى: " أوصى بعضهم بعضًا ". ([3]) ولذا لم يقل عز وجل:" وأوصوا؛ ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحض كل فرد من أفراد الأمة على الحق، ونزوع كل منهم إلى أن يوصي به غيره "([4]).

وفيه دلالة عميقة على أني وأنا أُوصي غيري أُوقن بأني بحاجة إلى من يوصيني، فأوطن نفسي على قبول هذه الوصية إذ إن " من يهمه أمر الحق ليوصي صاحبه بطلبه، يهمه أن يرى الحق فيقبله ... فكأنه في هذه العبارة الجزلة قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم ".([5])

وفيه أن الإنسان مهما ازداد إيمانًا وطاعة فليس بمنأى عن الوصية . والله تعالى أعلم ..

([1]) التفسير البياني 2 / 89.، وانظر لسان العرب، لابن منظور (وصي)، والقاموس المحيط باب الواو والياء فصل الواو.

([2]) نظم الدرر 8 / 524.

([3]) جامع البيان 12 / 685، وانظر معالم التنزيل 8 / 525، والجامع لأحكام القرآن 20 / 181.

([4]) دروس من القرآن / 77.

([5]) المصر السابق / 77.

(وتواصوا) وليس: يتواصَون

قال الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: " إنما قال: (وتواصوا) ولم يقل: ويتواصون؛ لئلا يقع أمرًا، بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل ". ([1])

(وتواصـوا) فعل مـاض

إن مجيء الأفعال (آمنوا) و(عملوا) و(تواصوا) في نسق واحد، وهو المضي، فيه دلالة واضحة على أن الذي سينجو من الخسر هو من قام بهذه الأفعال لا من يمني نفسه بالقيام بها، وفي هذا يقول النيسابوري ([2]): " وفي لفظ المضي إشارة إلى تحقيق وقوعه منهم " ([3])، ولعل الحكمة هنا ـ أعني ـ في لفظة (تواصوا) أن كثيرًا من الناس يعتذرون عن عدم التواصي بحجج واهية، كقول بعض طلاب العلم: إنه ليس أهلاً لذلك، إذ هو واجب العلماء، فإذا صرت عالمًا فسأفعل ذلك ...، ولا يخفى أن كثيرًا من الواجبات كالصلاة والصيام ... وكذا المحرمات كشرب الخمر والسرقة، والغيبة ...لا يكاد يجهلها أحد، وإذن فلا عذر لأحد في عدم القيام بالتواصي في حدود ما يعلم.

(بالحـق) معنـاه

([1]) التفسير الكبير 32 / 90.

([2]) هو الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، توفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة للهجرة. انظر الدرر الكامنة لابن حجر 2 / 120.

([3]) غرائب الفرقان 30 / 174.

الحق في اللغة كما يقول ابن فارس ([1]): " الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل ...".([2])

وفي التعريفات ([3]): هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ".

أما عند المفسرين، فالحق: " لزوم العمل بما أنزل الله في كتابه من أمره واجتناب ما نهى عنه فيه " ([4])، وبناءً على هذا فالحق يشمل الدين كله، قال الرازي: " فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل " ([5])، وعلى هذا اتفق العلماء وإن اختلفت عباراتهم. ([6])

(بالحـق) سر التعبير بهذا اللفظ

يدور المعنى اللغوي للحق ـ كما مر ـ بين معان ثلاثة: الإحكام، والصحة، والثبات، وأضاف المفسرون الشمول ـ أعني اشتمال هذا اللفظ على كل ما يتعلق بالإسلام ـ وإذن فلن يقوم أيُّ لفظ مقام هذه الكلمة ليؤدي هذه المعاني بهذا اللفظ الفرد، وأي إعجاز هذا الذي يأمر الإنسان، جنس الإنسان على امتداد العصور بلفظة واحدة تحمل بين ثناياها صفات

([1]) أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي، له من التصانيف: جامع التأويل في تفسير القرآن، وغيره،توفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. انظر طبقات المفسرين 1 / 59 ـ 70.

([2]) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس ١ / 69 ـ 70.كتاب الحاء، باب ما جاء من كلام العرب في المضاعف والمطابق أوله حاء وتفريع مقاييسه.

([3]) للجرجاني، ص120

([4]) جامع البيان 12 / 685.

([5]) التفسير الكبير 32 / 89.

([6]) انظر بحر العلوم 3 / 509، ومعالم التنزيل 8 / 525، والكشاف 4 / 800، وأنوار التنزيل 9 / 561، و تفسير القرآن العظيم 4 / 710،و نظم الدرر 8 / 523، وروح المعاني 15 / 458.

تخرج كل ما عداه، إذ ما عداه باطل مضمحل زائل، قال تعالى: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾. (يونس:32)

(بالحق) الله هو الحق ومنه الحق

الله تعالى هو الحق، وكل ما يدعى من دونه فهو باطل، والحق لا يكون إلا من الله؛ لأنه تعالى وحده الغني والناس جميعًا فقراء إليه، والله وحده الخالق والناس مخلوقون، والله وحده الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وهو وحده المالك والناس بما في أيديهم هو الذي جعلهم مستخلفين فيه ....

و لا يحدد معالم الحق ويحفظه ويبقيه ويجازي عليه إلا من كانت هذه صفاته، فإن الحق ليس طارئًا على حياة الناس أو دخيلًا عليهم، وليس لجيل دون جيل، بل هو أصل في فطرتهم ومقومات حياتهم، وبه يكون خلقهم ويكون موتهم وبعثهم، وعليه يقوم حسابهم وجزاؤهم، فمن ذا الذي يستطيع أن يحفظ أمر الحق في الزمن كله وفي المراحل كلها، ويجمع الأولين والآخرين ليوم الحق إلا لمن هذه صفاته .... ([1])

(العصر) (الإنسان) (الحق)

ورد في النقطة السابقة أن الحق ليس دخيلاً على الناس، ولا هو لجيل دون جيل ... فعلى امتداد العصور وللناس جميعًا هناك حق ثابت لا يتغير، وهو ما يعبر عنه بثبات القيم، ويطول شرح المقررين لهذا الأمر ليصلوا إلى أن القيم الإسلامية ثابتة لا تتغير، فالصدق لا يكون في جيل فضيلة ثم يصبح رذيلة في جيل آخر،وهو كذلك في المواقف كلها قيمة ثابتة ... ولقد جاء التعبير القرآني بلفظة واحدة لتعطي هذا البعد الراسخ للقيم الإسلامية، ...

([1]) كلمة الحق للدكتور محمد الراوي 526 . 527، بتصرف.

ومن هنا اختلف الفكر الإسلامي مع الفكر الغربي فيما أطلق عليه نظرية (سلم القيم) أو ترتيب القيم، ومن شأن فكر كل أمة من الأمم أن يختار الأسلوب الذي يراه في النظر إلى القيم، وإذا كان الفكر الغربي يرى أن للقيم قائمة، وأن ترتيب هذه القيم صعودًا ونزولاً تختلف باختلاف العصور والجماعات، فإن القيم الإسلامية كالإيمان بالله، والعمل الصالح الذي يشمل الأخلاق التي دعا إليها الدين الإسلامي ثابتة أبدًا؛ لأنها تتصل بالإسلام، وليس الإسلام دينًا وضعيًا يتطور معَ الزمن كما تتطور الأديان الوضعية والفلسفات، وإنما هو دين رباني يدعو الناس إلى أن يتطوروا هم ليتلاءموا معه، ولما كان الإنسان هو الإنسان في كل زمان ومكان، فإن هذه القيم الثابتة متصلة به مستجيبة لحاجاته وحامية له.

ولا شك أن الدعوة إلى تغيير قائمة القيم، أو ما يسمى (سُلم القيم) هي واحدة من الدعوات التي حملت لواءها الفلسفات المادية، ومن ورائها دعاة تدمير القيم الإنسانية، وإحلال مفهوم التطور المطلق والحرية غير المحدودة من أجل تدمير القوى البشرية التي تستطيع أن تصمد في وجه محاولة السيطرة على العالم، ومهما قال دعاة هذه النظرية من أن ظروف العيش، أو تطور المجتمعات، أو تغير الأسباب الاجتماعية، أو تحول الأمم من الزراعة إلى الصناعة، من شأنها أن تقيم أخلاقًا جديدة، فإن ذلك كله لا يستطيع أن ينفي أن الإنسان نفسه في هذه المراحل كلها هو الإنسان بطبيعته وتكوينه وتركيبه النفسي والعقلي خاضع لقيم عليا ثابتة، أما تطور المجتمعات والأمم والاقتصاد والاجتماع فإنه لاشك يحدث تغييرًا مقررًا ومعترفًا به، وهو ما يتصل بالقيم الصغرى أو القيم غير الثابتة ... وليس من شأن هذا التغير

أن يحطم قيمة من القيم العليا، كأن يسمح بإلغاء الزواج مثلاً، أو تحليل الربا، أو الخروج في دائرة المعاملات عن الأصول الثابتة في الاقتصاد أو التربية أو النظم الاجتماعية .... ([1])

(وتواصوا بالحق): العلـم

من المعلوم ـ بداهة ـ أن فاقد الشيء لا يعطيه، فالذي يتصدى للتواصي بالحق لا بد أن يكون له من العلم ما يتواصى به، يقول النووي ـ رحمه الله تعالى: " إنما يأمر وينهى من كان عالماً بما يأمر به وينهى عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة كالصلاة والصيام، والزنا والخمر ونحوها، فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال، وما يتعلق باجتهاد لم يكن للعوام مدخل فيه، ولا لهم إنكاره، بل ذلك للعلماء " ا.هـ ([2])

مما سبق يتبين أنه لا يشترط أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالماً بكل شيء، بل يكفي أن يكون ذا علم بما يريد أن يأمر به أو أن ينهى عنه.

وإن من العلم أن نُحسن إيصال الحق إلى الناس، وذلك باستخدام الوسائل المتعددة، والأساليب المتنوعة، والتعرف على مفاتيح القلوب، وكيفية التعامل مع الناس؛ لأن الإنسان ليس آلة من الآلات، وإنما هو الإنسان بروحه وجسده وعقله ومشاعره، وهو محتاج إلى تغذية هذه الأمور كلها، ولكي يكون التواصي مؤثرًا لا بد من التركيز عليها كلها. ([3])

ولا يخفى أن المراد من التركيز عليها كلها أن تُطرق هذه الأبواب بنسب مختلفة، فالتعامل مع العاطفي يختلف مع الذي يغلب عليه الجانب العقلي ... وهكذا.

([1]) قضايا العصر للأستاذ أنور الجندي / 162، بتصرف.

([2]) شرح النووي على صحيح مسلم 1 / 300.

([3]) انظر: فن التعامل مع الناس للخاطر / 8.

ومن الوسائل المهمة تعلم ما تدعو إليه الحال على حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم، وأول ما يجب في ذلك أن التاريخ الصحيح، وعلم تكوين الأمم، وارتفاعها وانحطاطها، وعلم الأخلاق، وأحوال النفس ...ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير ... ومنها تعلم اللغات الأجنبية ليقف على ما فيها مما ينفعه فيستعمله ومما يخشى ضرره على قومه فيدفعه .... ([1])

ولعل مما يحسن ذكره في هذا المقام ضرورة الوصول إلى قنوات التواصل الحديثة، ومنها القنوات الفضائية التي باتت تبث إلى الملايين، ومنها الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) فبواسطة هذا التطور العلمي تتوسع دائرة التواصي، إن بعض المواقع يصل زوارها في اليوم الواحد إلى أكثر من مليون زائر، فعلى باغي الخير أن يقبل على مثل هذه المخترعات وأن يتعلمها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، إن هذه الأجهزة تقتحم على الناس بيوتهم وما لم يعل صوت الحق، سينعق صوت الباطل.

(وتواصوا بالحق) الاختلاط بالناس

إن من لوازم التواصي بالحق الاختلاط بالناس؛ إذ لا يتهيأ لمن اعتكف في محرابه أن يسلك هذا السبيل، وقد ورد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: (المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم [أفضل] [خير] [أعظم أجرًا] من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم). ([2])

وفي صيد الخاطر فصل نفيس يتعلق بهذا المعنى، جاء فيه: ما زالت نفسي تنازعني بما يوجبه مجلس الوعظ، وتوبة التائبين، ورؤية الزاهدين ...إلى الزهد والانقطاع عن الخلق

([1]) دروس من القرآن / 87 . 88.

([2]) مسند الإمام أحمد 2 / 43.وسنن الترمذي (2507)، وسنن ابن ماجه (4032)، وهو صحيح.

والانفراد بالآخرة، فتأملت ذلك فوجدت عمومه من الشيطان، فإن الشيطان يرى أنه لا يخلو لي مجلس من خلق لا يحصون،يبكون ويندبون على ذنوبهم ...لقد تاب عندي في بعض الأيام أكثر من مائة، ...فكأن الشيطان لبعد غوره في الشر، رآني أجتذب إليّ من اجتذب منه، فأراد أن يشغلني عن ذلك بما يزخرفه ليخلو هو بمن اجتذبتهم من يده، ولقد حسّن إليّ الانقطاع عن المجالس ... فقلت: إن العزلة ينبغي أن تكون عن الشر لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال، وأما تعليم الطالبين، وهداية المريدين، فإنه عبادة العالِم، وإن من الخطأ الذي وقع فيه بعض العلماء إيثاره التنفل بالصلاة والصوم عن تصنيف كتاب، أو تعليم علم ينفع؛ لأن ذلك بذر يكثر ريعه، ويمتد زمانه، وإنما تميل النفس إلى ما يزخرفه الشيطان من ذلك لمعنيين:

أحدهما: حب البطالة؛ لأن الانقطاع عندها أسهل.

والثاني: حب المدحة؛ فإنها إذا توسمت بالزهد كان ميل العوام إليها أكثر ...، وهل كان شغل الأنبياء إلا معاناة الخلق، وحثهم على الخير، ونهيهم عن الشر؟. ([1])

ومما ينبغي التنبُّه له،أن تكون للإنسان ـ بالإضافة للخلطة العامة ـ خلطة خاصة مع الصالحين؛ لأن المجالسة تُورِث المجانسة، وحتى يتحقق الجانب الآخر من التواصي، فيوصَى هو إذا رُؤي منه خلل أو زلل.

(وتواصوا بالحق) تشريـف

مما لاشك فيه أن التواصي بالحق الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو وظيفة الرسل ـ عليهم السلام ـ وقد أمر الله تعالى أفضل الرسل محمدًا ﷺ أن يقول: [قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)]

([1]) صيد الخاطر / 29، بتصرف يسير.

(يوسف:108)، فقصرت الآية الكريمة مهمته على الدعوة إلى الله عز وجل، والذي يُلحظ من هذه الآية الكريمة أنها أشركت أتباعه معه في الدعوة [أنا ومن اتبعني] وفيه من التكريم والتشريف ما لا يخفى، وقد ورد النص على هذا التكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ] (آل عمران: من الآية110)، فهذه الآية الكريمة أفادت معنيين:

الأول: خيرية هذه الأُمة.

الثاني: أنها حازت هذه الخيرية لقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ([1])

(وتواصوا بالحق) الحق لا يقوم وحده

في قول الله تعالى: (وتواصوا بالحق) ما يدل دلالة واضحة على أنه لا بد للحق ممّن يقوم به، ويدعو إليه ويتواصى به حتى يظهر ويعلو على الأديان الباطلة والمذاهب الفاسدة التي لن تستطيع أن تطل بقرنها إلا في غفلة أهل الحق، فالحق والباطل طرفان متقابلان، ولا يجتمع الحق والباطل ...

والإسلام دين الحق، والداعون إليه دعاة للحق، وما يدعو إليه أصحاب الدعوات الأخرى هو الباطل، ولا بد أن يقوم الصراع بينهما، فهذا الصراع قديم قِدَم الإنسانية، ومنذ أن عُرف في الدنيا حقٌ وباطل ...ولذا فالتواصي بالحق يبدو هنا آكد، فإذا لم تدعُ إلى الحق،وتتواص به فإن هناك على الطريق دعاة إلى الباطل، مستمسكون به وعلى ذلك يتواصون.([2])

([1]) انظر أصول الدعوة للدكتور عبد الكريم زيدان / 298 . 299.

([2]) انظر معالم الثقافة الإسلامية / 53 . 54.

ولا يخفى أن التواصي ليس مقصورًا على الرجال فقط بل إن المرأة مطالبة بذلك من خلال دخولها تحت لفظ (الإنسان) في قوله تعالى: [والعصر إن الإنسان لفي خسر]، وفي قوله تعالى: [وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...] (التوبة: من الآية 71)، فالمرأة مطالبة بذلك على وجه الوجوب، كما هو الحال بالنسبة للرجل، ولكن هناك شروطًا ينبغي أن تراعيها، أهمها:

1 – أن تكون من أهل العلم بما تأمر به وتنهى عنه. . وقد مر هذا، وهو أمر تشترك فيه مع الرجل.

2 – أن تكون من أهل القدرة على ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

3 – أن تكون ممارستها لهذا الأمر بين النساء ....

4 – أن تعرف أنها إذا تعرضت للأذى من جراء أمرها أو نهيها لغيرها فإن جمهور العلماء لا يرون لها أن تستمر في الأمر بالمعروف، وحسبها أن تنكر بقلبها ....

إلى غير ذلك من شروط ... ([1])

وللمرأة من سلفها الصالح نماذج، فقد كانت أم شريك . ﵂ . تقوم بالدعوة سرًا في أوساط النساء بمكة المكرمة، رغم معارضة قريش الشديدة لذلك. ([2])

(وتواصوا بالحق) واقعية هذا الدين

إن التواصي بالحق كما يكون بالثبات عليه، يكون لمن تنكبه من باب أولى، وهنا تظهر واقعية الإسلام، فهو لم يفترض . ابتداءً . أن الإنسان ملَك لا يمكن أن يخطئ، وأنه مادام عبدًا لله تعالى فيجب عليه ألا ينحرف، وإن كان هو الأصل لكن الله تعالى خالق الإنسان يعلم ضعف

([1]) انظر المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله. للدكتور علي عبد الحليم محمود / 188 . 189.

([2]) انظر صفة الصفوة لابن الجوزي 2 / 53.

هذا الإنسان وقلة صبره، وكثرة الشبهات والشهوات التي تعترض سيره إلى ربه عز وجل،كيف والحق ثقيل، فمن ضعف عن السير قواه التواصي ....ولذا يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ: " والتواصي تذكير وتشجيع، وإشعار بالقربى في الهدف والغاية والأخوة في العبء والأمانة ... " ([1])

(وتواصوا بالصبر) إعادة التواصي.

لم يقل المولى ـ عز وجل ـ: وتواصوا بالحق والصبر، وإنما أُعيد ذكر التواصي، وذلك " ليضمن الأول معنى الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه، والأول الأمر بالمعروف، والثاني النهي عن المنكر ... " ([2])

وقال الصاوي ([3]) رحمه الله تعالى: " كرر الفعل لاختلاف المفعولين " ([4])

ويمكن أن يقال: إن تكرير الفعل للاهتمام بالمفعولين، وأن كلاً من الحق والصبر يستحق أن يُفرد بالتواصي، فهو أبلغ مما لو قيل: وتواصوا بالحق والصبر.

(وتواصوا بالصبر) تكرار الباء

إن إعادة الجار هاهنا لإبراز كمال العناية بشأن الصبر، فلم يقل عز من قائل: وتواصوا بالحق والصبر، بل أُعيد الفعل المتعلق به وهو التواصي ـ كما مر ـ وأُعيد الجار للملحظ الذي سبقت الإشارة إليه. ([5])

(بالصبر) معنى الصبر

([1]) في ظلال القرآن 6 / 657.

([2]) التفسير الكبير 32 / 90.

([3]) العلامة أحمد بن محمد الصاوي المالكي، مصري، من علماء الأزهر، توفي سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف للهجرة، بالمدينة المنورة. انظر مناهج المفسرين للدكتور منيع / 289، وما بعدها.

([4]) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين 6 / 327.

([5]) انظر روح المعاني 15 / 458.

" الصبر: حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه، فالصبر لفظ عام، وربما خُولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي صبرًا لا غير، ويضاده الجزع، وإن كان في محاربة سمي شجاعة، ويضاده الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمي رحب الصدر، ويضاده الضجر، وإن كان في إمساك الكلام سُمي كتمانًا، ويضاده المِذل، وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرًا ..." ([1])

(بالصبر) على ماذا؟

لم تذكر الآية الكريمة متعلق الصبر، والحذف كما هو معلوم ـ يدل على العموم، ولذا أجاد الزمخشري حين قال: " ... عن المعاصي، وعلى الطاعات، وعلى ما يبلو الله عباده "([2]) فقسم الصبر إلى ثلاثة أنواع، وهو تقسيم حسن.

وهناك تقسيم آخر باعتبار آخر، وهو: الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب. ([3])

ومما ينبغي أن يعلم أن الله تعالى أمرنا بالتواصي بالصبر، وهذا لا يتحقق إلا إذا صبرنا وأوصينا غيرنا بالصبر، وصبر غيرنا وأوصانا بالصبر، وبذا يكمِّل الإنسان نفسه ثم يحاول إكمال غيره، فينشأ مجتمع متحاب، يفعل الخير، ويحب أن ينتشر هذا الخير في المجتمع كله، بل في العالم أجمع.

(الصبـر) وسط بين طرفين

([1]) مفردات غريب القرآن / 474.

([2]) الكشاف 4 / 800.

([3]) بدائع التفسير 5 / 329.

" الصبر كغيره من الأخلاق يكتنفه خلقان ذميمان، والممدوح منه وسط بينهما، والتواصي به يعني التواصي على الاستقامة بين الطرفين المذمومين للصبر، طرف التفريط في الصبر المؤدي إلى التهور والعجلة في الأُمور، أو الهلع والجزع والتسخط، وطرف الإفراط المؤدي إلى القسوة وغلظ الكبد وتحجر الطبع، وبينهما يقع الصبر المستقيم الذي لم تدفعه الشدائد والابتلاءات إلى الضعف والخور والجزع، وفي المقابل لم تدفعه بضغوطها وشدتها إلى العجلة والتهور والقسوة المخالفة لقواعد الشريعة ومقاصدها ". ([1])

(الصبـر) المطلوب

إن الصبر الذي ندب إليه الشرع ورتب عليه الثواب، هو ما كان اختيارًا، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى) ([2])، وهو صبر المؤمن الذي يعلم حسن عاقبة الصبر، وأن الجزع لن يرد عليه فائتًا، وأن المقدور لا حيلة له في دفعه، وأما غيره فيصبر اضطرارًا حيث يرى أن الجزع لم ينفعه، فصبر صبر الموثق للضرب.

وقد قال بعض العقلاء: العاقل عند نزول المصيبة يفعل ما يفعله الأحمق بعد شهر. ([3])

شروط الصبـر

إن الصبر الذي أمر به الله تعالى لا يتحقق إلا بثلاثة شروط:

الأول: أن يكون ابتغاء وجه الله تعالى، قال تعالى: [ولربك فاصبر] (المدثر: 7).

الثاني: أن يكون على أمر يحبه الله تعالى ويرضاه.

([1]) وقفات تربوية في ضوء سورة العصر لعبد العزيز الجليل / 220.

([2]) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، 23 .كتاب الجنائز، 31 . باب زيارة القبور، برقم (1283). والإمام مسلم في صحيحه،11– كتاب الجنائز، 8– باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، برقم(626)

([3]) عدة الصابرين، لابن القيم / 52

الثالث: الاستعانة بالله وحده على الصبر؛ لأنه سبحانه وحده المصبر والمثبت، وهذا يقتضي التبرؤ من كل حول وقوة سوى الله عز وجل. ([1])

الصبر خلـق إيجـابي

إن كثيرًا من الناس يتوهمون أن الصبر خلق سلبي، وأن معناه الاستسلام والرضى بالواقع والكف عن معالجة الأُمور، ومحاولة الخروج من الشدائد والأزمات، وهذا فهم غير صحيح، فالصبر كما يكون جهدًا نفسيًا للتأبّي على المعاصي والابتعاد عن السيئات، ففي شقه الثاني ـ وهو الصبر على الطاعة ـ يكون جهدًا عمليًا إيجابيًا فيه حركة وسعي وإنتاج، وفيه تعرض لجلائل الأعمال .... ([2])

الأمور التي تعين على الصبر

إن أعظم معين على الصبر هو تدبر ما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة من الحث على الصبر وفضله، وما أعده الله تعالى للصابرين في الدنيا والآخرة ...، ولتفصيل هذا الأمر ينبغي أن تُذكر مع كل نوع من أنواع الصبر ما يعين عليه، وذلك كالآتي:

أولاً: الأمور التي تعين على الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية.

1. إجلال الله تعالى أن يعصى وهو يرى مكانك ويسمع كلامك.
2. محبته ـ عز وجل ـ فإن المحب لمن يحب مطيع.
3. تذكر نعمه، إذ الكريم لا يقابل الإحسان بالإساءة ....
4. خوف غضبه وانتقامه ـ عز وجل ..

([1]) وقفات تربوية/ 218.

([2]) انظر أخلاق القرآن للشرباصي / 1 / 194.

5. إيثار ما أعده الله تعالى للصابرين، وهو ما وعد سبحانه من تعويض من ترك المحارم لأجله ونهى نفسه عن هواها، وليوازنه بين العوض والمعوض فأيهما كان أولى بالإيثار اختاره.
6. التفكر بالدنيا، فالدنيا سريعة الزوال .. والآخرة دار الخلود .. وصبر دون صبر.
7. أن يلجأ إلى الله تعالى، فقلوب العباد بين إصبعيه، وأزمة الأمور بين يديه.
8. أن يبذل الجهد ويستفرغ الوسع والطاقة في الصبر، ومتى فعل ذلك ولجأ إلى الله تعالى أعانه ووفقه(1)

ثانيًا: الأمور التي تعين على الصبر على الصبر على المصائب، وهي كثيرة، أهمها:

1. معرفة طبيعة الحياة الدنيا، وأنها دار ابتلاء وتكليف، فمتى عرف هذا لم يفاجأ بما يصيبه فيها.
2. معرفة الإنسان نفسه، وأنه ملك لله تعالى، فهو الذي خلقه من عدم، منحه الحياة، ووهبه السمع والبصر والفؤاد وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فإذا نزل به نازل سلبه شيئًا مما عنده فإنما استرد صاحب الملك بعض ما وهب، ولقد علّم القرآن الكريم الصابرين أن يقولوا: [إنا لله وإنا إليه راجعون] (البقرة: 157).
3. اليقين بحسن الجزاء من عند الله تعالى.

إن مما يهون المصاب على المبتلَى أن يوقن بما أعد الله تعالى من جزاء للصابرين، ويكفي أن يقرأ قوله تعالى:[إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب] الزمر:10)؟

([1]) عدة للصابرين 42 . 45. بتصرف يسير.

4. اليقين بالفرج، وأن فرج الله تعالى آت لا ريب فيه، وأن مع العسر يسرًا، هذا اليقين جدير بأن يبدد ظلمة القلق وينشر ضياء الأمل.
5. الاستعانة بالله تعالى.

مما يعين على الصبر أن يستعين المبتلى بالله تعالى، ويلجأ إلى حماه، فيشعر بمعيته سبحانه، ومن كان في حماية ربه فلن يضام، يقول تعالى: [واصبروا إن الله مع الصابرين](الأنفال: 46).

6. الاقتداء بأهل الصبر.

ينبغي على المسلم أن يقرأ سير الصابرين، ويتأمل أحوالهم، حتى يسهل عليه التأسي بهم، ولقد أكثر القرآن الكريم ـ وبخاصة في السور المكية ـ من قصص الأنبياء تسلية للنبي ﷺ ولصحبه الكرام ـ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ـ وتثبيتًا لقلوبهم.

7. الإيمان بقدر الله تعالى.

لا بد للمسلم من اليقين بأن قدر الله تعالى نافذ لا محالة، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. ([1])

(وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) التقديم والتأخير

إن لتقديم الحق على الصبر أكثر من ملحظ:

الأول: أن الإنسان لا يصبر إلا إذا كان معه حقٌ، يقول ابن تيمية: " لا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويتغذى به، وهو اليقين ". ([2])

([1]) انظر الصبر في القرآن، للقرضاوي/ 85 ـ 102.

([2]) مجموع الفتاوى، لابن تيمية 28 / 153.

الثاني: أن الحق ثقيل، فاحتاج ابتداءً إلى تواص، ثم أُردف بضرورة التواصي بالصبر؛ لأن الاستمرار على التمسك بالحق جد عسير، إذ " لا يقوى الإنسان على التكاليف وأداء الواجبات إلا بهذا التواصي، فلذلك جعل من أسباب الفلاح، وهذه حقيقة واقعة، فإن الإنسان لا ينشط إلا إذا وجد من يشجعه عليه ... " [1]، يقول سيد قطب: " والتواصي بالحق ضرورة، فالقيام على العمل الصالح وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة ". [2]

(وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) اقتران الصبر بالحق

" جعل التواصي بالصبر قرينًا للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره وفخامة شرفه، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه ". [3]

(وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ذكر الخاص بعد العام

التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق، فإفراده بالذكر، لأكثر من نكتة، منها:

1 / " المبالغة؛ لأنه يدل على أن الخاص [وهو هنا التواصي بالصبر] لكماله بلغ مرتبة خرج بها عن الاندراج تحت العام ... ". [4]

2 / الاعتناء بشأن الصبر لما فيه من زيادة حبس النفس والرضا بأحكام الربوبية. [5]

([1]) تفسير سور المفصل من القرآن الكريم، لعبد الله كنون / 405.

([2]) في ظلال القرآن 6 / 657.

([3]) فتح القدير 5 /540.

([4]) عناية القاضي للخفاجي / 5 / 561.

([5]) حاشية الصاوي 6 / 327، بتصرف يسير، وانظر الفتوحات الإلهية للجمل 8 / 398، و روح المعاني 15 / 458.

3 / لأن التواصي بالحق عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضي الله تعالى،

والتواصي بالصبر عبارة عن رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى.([1])

4 / لأن جميع الفضائل إنما تستمد من الصبر، كما أن سبب جميع الرذائل إنما يرجع إلى ضعف الصبر، فكان جديرًا بالذكر. ([2])

أما ما ذكره الشوكاني من أن دلالة هذا الأمر " من أعظم الأدلة الدالة على إنافته [يعني: زيادته، والمراد الصبر] على خصال الحق ومزيد شرفه عليها وارتفاع طبقته عليها " ([3])، فلا أحسب أنه مُسلَّم؛ وذلك لأنّ من الحق الإيمان، وأوله الشهادتان ....، ولا شك أن مرتبة الصبر تلي الإيمان ولا تتقدمه . والله تعالى أعلم ..

(الإنسان ... الصبر) الصبر خصيصة إنسانية

" لما كان الإنسان هو المخلوق العاقل المكلف المبتلَى، كان الصبر خصيصة من خصائصه المميزة،([4]) ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة، أما في البهائم فلنقصانها، وأما في الملائكة فلكمالها، وبيانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرًا.

([1]) انظر إرشاد العقل السليم 6 / 688، والفتوحات الإلهية 8 / 398، وعيون التفاسير للسيواسي 5 / 561، وحدائق الروح والريحان للهرري الشافعي 32 / 302.

([2]) دروس من القرآن / 80.

([3]) فتح القدير 5 / 540.

([4]) الصبر في القرآن / 10.

وأما الملائكة ـ عليهم السلام ـ فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية، والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها، حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف.

وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصًا مثل البهيمة، لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه، ثم تظهر فيه شهوة اللعب، ثم شهوة النكاح على الترتيب، وليس له [يعني في طفولته] قوة الصبر البتة،

ثم رفع الله تعالى درجة هذا الإنسان عن درجة البهائم، فأمده عند مقاربة البلوغ بقوتين: قوة تهديه إلى معرفة الحقائق الكبيرة، بها يعرف الله ورسوله، ويعرف المصالح المتعلقة بالعواقب، وبها يتميز عن البهيمة التي لا تهتدي إلا إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة.

وقوة أخرى مكملة للأولى تؤيد الإنسان وتشد أزره في معركته معَ الهوى وجند الشيطان .... [1]

قال الغزالي: " فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها: باعثًا دينيًا، ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها: باعث الهوى، وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى، والحرب بينها سجال، ومعركة هذا القتال قلب العبد، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله،

([1]) إحياء علوم الدين 4 / 62 . 63، بتصرف يسير.

والتحق بالصابرين، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ". [1]

(والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا ...) الجمع بين الترغيب والترهيب.

المتتبع للمنهج القرآني يجده يجمع بين الترغيب والترهيب،، وهو أسلوب تربوي بُني على ما فطر الله عليه الإنسان من الرغبة في اللذة والنعيم والرفاهية وحسن البقاء، والرهبة من الألم والشقاء وسوء المصير [2]، وفي هذه السورة الكريمة بين المولى عز وجل أن الإنسان في خسر، وهذا ترهيب شديد، ثم عُقب بالترغيب في الإيمان والعمل الصالح ...

(والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا ...) تقديم الترهيب على الترغيب.

لوحظ في الفقرة السابقة كيف جمعت هذه السورة القصيرة بين الترهيب والترغيب، وهنا ملحظ آخر،هو تقديم الترهيب على الترغيب، ولعل السبب في ذلك أن الترهيب كالدواء، والترغيب كالغذاء، فقُدم الدواء لينفع الغذاء، [3]، وينبغي أن لا يغيب عن البال أن السورة مكية، والمجتمع في أمس الحاجة إلى الدواء كيُ يشفى من أمراضه ....

(والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين..) ذُكر سبب الربح دون سبب الخسر

([1]) إحياء علوم الدين 4 / 63.

([2]) أصول التربية الإسلامية / 286، بتصرف يسير.

([3]) انظر المقتطف من عيون التفاسير 1 / 55.

يقول الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: " لسائل أن يسأل، فيقول: إنه في جانب الخسر ذكر الحكم، ولم يذكر السبب وفي جانب الربح ذكر السبب وهو الإيمان والعمل الصالح ولم يذكر الحكم، فما الفرق؟

قلنا: إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل، وهو الإقدام على المعصية يحصل بالترك، وهو عدم الإقدام على الطاعة، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل.

وفيه وجه آخر، وهو أنه تعالى أبهم في جانب الخسر ولم يفصل،وفي جانب الربح فصل وبين،وهذا هو اللائق بالكرم. ([1])

وفي حدائق الروح والريحان [(2)] " ولعله إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاءً، فإن المقصود بيان ما فيه الفوز بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية، وإشعارًا بأن ما عدا ما عُدّ يؤدي إلى خسر ونقص حظ، أو تكرمًا؛ فإن الإبهام في جانب الخسر كرم؛ لأنه تركَ تعداد مثالبهم وأعرض عن مواجهتم به ".

وأخيرًا، هذه فوائد عامة مستنبطة من سورة العصر:

في هذه السورة تتجلى حكمة الله تعالى حيث لم يخلق الناس ثم يتركهم سدًى، لتشريعات بشرية جبلت على النقص، ولا تخلو من اتباعٍ للهوى.

رحمة رب العالمين بعباده، إذ شرع لهم ما يصلح دنياهم وأخراهم، ولم يتركهم يتخبطون ....

([1]) التفسير الكبير 32 / 89.

([2]) للهرري 3 / 303.

تكريم الله تعالى للإنسان فقد خصه بأن أرسل له الرسل، وأنزل عليهم الكتب تنير لهم حياتهم، وتوصلهم إلى جنات ربهم.

بيان إعجاز القرآن الكريم، وإثبات أنه من عند الله تعالى، ففي كلمات معدودة بينت ما يعجز الإنسان عن ذكره في صفحات.

أُسلوب القرآن الكريم السهل الذي يفهمه المخاطب، في حين أنه يعرض حقائق ضخمة، تُبنى عليها سعادة الإنسانية أو شقاؤها، أسلوب خال من الجفاف والتعقيد والمصطلحات الكلامية والفلسفية. [1]

الخاتمـــة

بعد هذه الرحلة المباركة معَ سورة العص ر، وبعد أن استفرغت وسعي في محاولة تدبرها، منقبًا في كتب التفسير قديمها وحديثها، محاولاً ضم النظير إلى النظير، مجتهدًا أن لا أذكر نكتة إلا لها سند علمي متين، وقفت على تسع وثمانين نكتة، ولا أزعم أني قد ذكرت كل ما اشتملت عليه السورة من دلالات، وأنّى لي ذلك، ولكنها محاولة أردت بها حث نفسي أولاً ثم حث قارئها، على تدبر هذه السورة العظيمة ؛ ليكون دافعًا للجميع كي يعمل بما تضمنته ليلحقَ بركب الناجين من الخسر.

وبالإمكان أن أُجمل النتائج في الآتي:

- أن القرآن الكريم بحر مليء بالدرر، ولكنه بحاجة إلى غواص ماهر ليلتقطها، وقبل ذلك وبعده توفيق رباني، وكلما غصت في هذا البحر تجلت لك عجائب ما كانت في الحسبان، وحين قررت وضع الخاتمة كنت على يقين أن كثيرًا من النكات قد فاتتني لا محالة، ولكن لما كان لابد لكل بحث من نهاية، فقد قررت

(1) انظر محاضرات إسلامية هادفة / 206.

الاكتفاء بهذه النكات لعل غواصًا أمهر . وهم كثر بحمد الله تعالى . يواصل المسير، ولو أردتَ إجراء هذا الأمر على جهد بشري، فإنك واجد خلاف ذلك ولاشك، فكلما تمعنت فيه تبدت لك عيوب لم تكن قد ظهرت من قبل ...

- أهمية تدبر كتاب الله تعالى للوقوف على الأسرار المبثوثة فيه، ولذا أنكر القرآن على الذين أهملوا هذا الجانب، فقال عز من قائل: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (مُحَمَّد:24).
- أن القرآن الكريم معجز، ومن أدلة إعجازه: التعبير باللفظ القليل عن المعاني الغزيرة.
- بُعد نظر الإمام الشافعي حين قال عن هذه السورة العظيمة: " لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم " فما الذي يحتاجه الإنسان إذا ما تدبر هذه السورة، لقد ذكرت حال كل إنسان، وأن الخسر محيط به من كل جانب، ثم فصلت الأمور التي تخرجه من دائرة الخسر إلى الفوز العظيم، وقد قصدت السورة الكريمة كل إنسان على امتداد العصور، ووضعت له منهجًا واضحًا
- حدًا لا يتغير ولا يتبدل، منهج رباني بكل ما تحويه هذه الكلمة من معاني العصمة لهذا المنهج، ومن الكمال، والحكمة، ومن بُعد عن الأهواء ...فحريٌّ بكل إنسان أن يتدبر هذه السورة، وأن يتحسس مواضع خطوه ليحدد الأرض التي يقف عليها، وهل هو في دائرة الخسر أم أنه سائر في ركب الناجين، وأين موقعه في هذا الركب، وما نصيب الصفات الأربع التي نصت عليها هذه السورة في سلوكياته؟.